الزهرة التركيَّة

في

الحديقة الرهبانية

ترجمة حياة بهيَّة خالد المعتدية أمس ، والاخت
ماري هيلانة اليوم ، احدى راهبات دير الزيارة ،
في زوق مكايل . تكلَّمت عن لسانها ، وهي في الدور
الاول من حياتها العالمية ، وعن لسان أهل الدير وهي
في الدور الثاني من حياتها الرهبانية.

بقلم حضرة المنوري يوسف العشي المرسل البطريركي

٢

ان من يقرأ ترجمة الاخت ماري هيلانة ، مولودة الأستانة ، المعتدية المذهب في الاصل ، لا يتمالك من الاندهاش بمناعيل النعمة الالهية التي لا تقف بسبيلها اعظم قوة بشرية.

وُلدت هذه الغرسة الصالحة من ابوين لا يُدركان ، او لا يُريدان ان يُدركا ، عظمة وسموّ الدين المسيحي ، وجمال وكمال الحياة الرهبانية ، وقداسة السيرة التي هي مجموع كل الفضائل بدرجة سامية تفوق القوى البشرية.

اقبلت هذه الابنة بكل مسرّة وشوق وارتياح الى اعتناق الحياة الرهبانية وايثارها ، بعد تنصيرها - ولعمري مَن انبأها أو اوحى اليها ، وهي في صدر ايّامها ، في حداثة سنّها ، لتترك اباها وامها ، ولم يكن قد طرق مسامعها بعدُ قول من اختارته لنفسها عروساً: « من لم يترك اباً واماً . . . » ، وتدين بدين لا يتفق ودين اجدادها. وتعتنق حالةً يحظرها عليها كتابها: لا رهبانية في الاسلام. هي نعمة خاصة استدركت هذه الغرسة الجميلة ، وجعلت لها بين بنات جنسها شأناً بجميع اطوار حياتها.

ان تربية الطفل يسوع الفرنسية كان لولادتها مسيحيةً ، ولتربية والديها ،

وللمحيط الذي وُجدت فيه ، تأثيرٌ وعملٌ في تثقيفها وتهذيبها ، كما قالت هي نفسها عن ذاتها:

« لم اكن آمن قط على نفسي فيما لو كنتُ تربّيتُ على ايدي والدَين غير فاضلين. انما امثال والديّ الصالحة قد انطبعت في قلبي فاضطررت ان امثل بها.»

اما بيئة «الطفل يسوع» التركية فلا امثال والديها ، ولا المحيط الذي وُجدت فيه في اول نشأتها ، امكنهما ان يؤثرا فيها. نشأت بعيدة عن الحياة المسيحية ، وأتت من الاعمال الخطيرة والتضحيات السامية ما تفاخر به بنات جنسها ، ويدلّ على عظمة نفسها . نذرت باكر التقوى نذورها ، وكرّست ذاتها ليسوع عروسها الذي احبته حبًّا فائقاً وتخلّت عن كل شيء للتفرغ لخدمته . فكانت مثالًا بطاعتها ، قدوةً بطهارتها ، نموذجاً بوداعتها وصبرها.

ان اجماع الكلمة على امر هو شهادة عدل على حقيقته . وان جميع من عرفوا الاخت ماري هيلانة ، وعاشروها ، يشهدون بسموّ فضائلها وقداسة سيرتها.

اولًا بطاعتها العمياء لرؤسائها بتسليم وانقياد ليس بعدهما زيادة . فكانت تعتقد اتمّ الاعتقاد بان اطاعتها لرؤسائها هي اطاعة يسوع عينه.

ثانياً بمحبتها الفقر . منذ دخلت هذه الابنة الى الدير لم تطلب لذاتها شيئاً ولو زهيدًا . بل كانت تكتفي بما يُقدّم لها . وكثيرًا ما كانت تلتمس من الرئيسة ابدال ما خُصّت به من ثوب جديد بثوب عتيق.

ثالثاً بطهارتها وحبها لهذه الفضيلة . فقد كانت مثالًا بحشمتها ، بآدابها ، بحركاتها ، بمحادثتها ، بكلامها ، فلم ترفع نظرها الى احد قط. ومن ينظر الى هذه الابنة الفاضلة والى ما امتازت به من صفات واخلاق لا يسعه الا القول عنها : ليس هذه بشرًا ان هي الّا ملاكٌ سماويّ.

على ان جمال هذه الزنبقة وعرفها العطر لم ينحصرا ضمن جدران ديرها ، بل ما لبثا أن اشتهرا وتضوّعا خارجاً واصبحا حديث القوم . فكان الكثيرون من مرضى واعلاء يأتون الدير طالبين مشاهدة الراهبة ماري هيلانة للتبرك منها وطلب صلاتها. اما هي فكانت تنقبض حياء ، وتتزوى خجلًا. ومن صفاتها الخاصة

الوداعة والصبر ، مما حفظ لها بين اخواتها ممن عاشرنها اعظم تذكار ، بل افضل مثل على حسن معاملتها واحتمالها . فلم يكن يُسمع منها قط كلمة تذمّر ؛ ولم يكن يظهر على وجهها سمات حزن او امارات كآبة منذ ما دخلت الدير . وكثيرًا ما كانت تعتذر لرفيقاتها فيما اذا كانت سيئت لهنَّ ما يكدرهنَّ .

ومما امتازت به دون سائر اخواتها هو حفظها قوانين الرهبانية بتدقيق . فمنذ دخلت الدير لم تتخلف قط عن الاوقات المخصصة للصلوة والعبادة ، وعن ممارسة النوافل وسنن الكمالات الرهبانية وبجمل القول انها كانت تحفظ قوانين رهبانيتها بكل تدقيق ، حتى في اشتداد المرض عليها الذي لم يكن يقعدها عن ان تتقدم جميع اخواتها في الذهاب الى الكنيسة للمناولة اليومية والى محلات الشغل . اما في الاوقات الحرّة فكانت تلازم الكنيسة ساجدة امام القربان المقدس . اما السبحة الوردية فكانت تنهض نصف الليل وتتلوها بخشوع وعبادة ، جاثية بالقرب من سريرها . . .

لم تكن الطبيعة لتحرم بهيّة الطفل يسوع من جمال خَلق كان ، ولا مشاحة في القول ، دليلًا على كرامة خُلقها . فكانت تبدو على محيّاها صورة سماويّة تنبيء عمّا حواه هذا الهيكل الجميل من الكنوز الادبية السامية .

. . .

صفاتٌ ثلاث تحلّت بها ابنة السماء ماري هيلانة : صفة جسدية ، وقد مرّ الكلام عنها . وصفة عقلية ، وهي إدراكها سعادة الحياة الآتية وشقاء هذه الحياة . وإيثارها اسلم الطرق وآمنها للبلوغ الى غايتها . وما هي هذه الطرق الّا الطرائق الرهبانية ، الملجأ الامين ، ميناء الخلاص . وصفة قلبية ، وهي الاخلاص بكل اعمالها . لم تكن تنكف عن الشغل في اوقاته . ولم تكن تتسامح قط او تتساهل بخرق حرمة القانون ، ولو في اصغر مادّة . فكانت محبة الصمت والسكوت والتستّر والتخفي عن العيون تحبس نظرها عن كلّ موضوع ، ولو مجرّدًا . وجسدها عن الراحة ، ولو ضرورية وباتوة . فكانت تجد في كل امر موضوعًا لاماتة الذات الباطنة والظاهرة . وعلى الخصوص في إبان مرضها الذي تعتر برؤهُ واحتملته بضع سنين بصبر وتسليم دون تذمّر او شكوى

بل بالعكس فقد كانت تعدّ مرضها كافتقاد العناية الالهية لتقصر ايام غربتها على الارض وتجزل اجرها في السماء.

وما كانت متصفة به هذه الراهبة الفاضلة من السذاجة المسيحية ، وسلامة القلب والنية ، أهلها لان تتنعم برؤية العذراء مريم وطفلها يسوع مرارًا. فقبل وفاتها بشهرين ، اتت الام الرئيسة فقالت لها ببساطتها المعهودة: «ان امي العذراء ظهرت لي وانا اتململ من شدة الالم ، وقالت لي انها تنقلني اليها بعد شهرين.» وبالواقع قبل وفاتها بثلاثة ايام ، نهضت من فرشتها ، واخذت تودع اخواتها الراهبات طالبة اليهنّ ان يتوسّلن الى الله لاجلها وان يسامحنها ، ودموعها تتساقط كاللؤلؤ المنثور.

وفي ذات ليلة بينا كانت الراهبات غارقات في نومهن استفقنَ على صوتها وهي تتكلم بلهفة فقلنَ لها : « ما شأنك يا اختنا في هذه الليلة ؟ مع من تتكلمين ؟ » فاجابتهنّ فورًا : «سيدة جميلة تكلمني ! هي لا شكّ امّ يسوع الطفل ، امي ! »

وكثيرًا ما كانت تُشاهَد هذه الابنة الفاضلة مختطفةً بالروح وهي تردّد هذه النافذة :

« يا قلب يسوع الحلو ارحمني ! »

ولما كان يشتدّ المرض عليها ويضايقها كانت تلجأ الى عروسها الالهي صارخة اليه من عمق فؤادها : « انقذني يا يسوع من جسد الخطيئة هذا ! »

ولم تكن تنزع صورة قلب يسوع من صدريّتها وايقونته من عنقها . ففي احد الايام فقدت هذه الصورة ، وهي في بستان الدير ، ولم تشعر حينئذٍ بفقدها. ففي الليلة عينها سمعت صوتاً ، وهي مستغرقة في نومها ، يقول لها على ثلاث مرات: « انهضي وفتشي عن صورتي التي فقدتها.» فاسرع من لمح البصر استفاقت من نومها ، واذ لم تجد الصورة ضمن صدريّتها ، اسرعت الى البستان الذي قضت فيه فترةً من الزمن للتأمل بجمال المخلوقات وحكمة الخالق ، وفتشت عن الصورة فوجدتها بين اغصان وردة زاهرة فتناولتها وقبّلتها ، وقفلت راجعة لفرشتها

٣

اما عبادتها للقربان فمما يقصر عن وصفه القلم. كانت تقضي اوقاتها الحرّة في الكنيسة ، جاثية على ركبتيها امام السجين الالهي شاخصة ببصرها اليه ، تاركة لقلبها وعواطفها الكلام لمن احبته من صغرها لدن رأته في حلمها يدعوها اليه ، لتترك اباها وامها وتلحق به . ومما لحظته اخواتها من بنات جمعيتها هو ما كان يبدو على وجهها من الامارات الغريبة عند الاحتفال باعطاء البركة بالقربان الاقدس ، بادمان نظرها بالقربان ، بسيل دموعها ، بتأوّه صدرها ، بهتملة كلامها ، مختطفة بالروح مدة عرض القربان للعبادة والاكرام . وقد سُئلت مرة عن هذا الامر فاجابت بسذاجتها المعروفة : « اني اشاهد الطفل يسوع بجماله السماوي ، باسم الثغر ، يدعوني اليه . وهو هو عينه الذي رأيته في الحلم في بستاننا في الاستانة.»

وفي احد الايام حلمت في نومها ان يسوع القى على ذراعها اليمنى صليباً ثقيلاً ، ولم تطل المدة على حلمها هذا حتى ظهر على ذراعها في المحلّ عينه داء الجمرة. فاحتملت هذا الداء الجديد بسرور وارتياح لاعتقادها بان الطفل يسوع ، عروسها الالهي ، اراد ان تشاركه في آلامه على الارض ، لتشاركه في سعادة السماء عن طريق الصليب والجلجلة . وهكذا قضت ما بقي من ايام حياتها القليلة على الارض مستسلمة بكل خضوع وانقياد لعروس نفسها . الى ان طارت روحها الطاهرة الى خالقها وهي تردّد قولها: « يا يسوع حبيبي ، في يديك استودع روحي! » ، بعد ان مُسحت بالزيت المقدس وتزوّدت زاد الراحلين ، وحصلت على جميع المساعدات الروحية ، ووجهها يتدفق بشراً وسلاماً ، في اليوم التاسع من شباط الواقع فيه عيد القديس مارون سنة ١٩٢٧ . ودفنت بمدفن الدير الخاص بالراهبات بكل احترام.

وبعد وفاتها بمدة قليلة ، ظهرت لاحدى الراهبات في حلمها واشارت اليها بان تُصرف الابنة ... من الدير ، اذ لم تكن مدعوّة للحالة الرهبانية . وبالواقع لم تُطل الابنة المذكورة اقامتها في الدير حتى أعارته ظهرها ، بعد ان قضت

فيه ١٢ سنة دون فائدة.

وبعد مرور سنتين وشهرين على وفاتها ، فُتح المدفن الذي دفنت فيه لايداع راهبة اخرى توفيت برائحة القداسة ، فوجد وجهها باقياً على بشرته ، وجسدها سليماً على حاله.

* * *

هذا ملخص حياة الراهبة ماري هيلانة[1] ، احدى ازاهير رهبانية الزيارة ، وقد اسميتها «بهجة الطفل» لبيان سبب اهتدائها ، وهي في بيت ابيها في الاستانة ، كما رأيت.

وينتج مما قلناه لحد الآن بترجمة بهجة الطفل يسوع ، او الاخت ماري هيلانة ، ان في وسع الجميع ان يصعدوا الى ذرى القداسة اذا قصدوا ، دون حاجة الى صنع المعجزات والاعمال الخارقة ، كما ارتقت المترجمة لدرجة القداسة بطريق المحبة الكاملة والثقة التامة بيسوع . ومما اجاهر به وافاخر ان امثال هذه الزهرة في حدائقنا الرهبانية ، لكلا الجنسين ، كثيرٌ يتناقل الخلف ذكر فضائلهم جيلًا بعد جيل.

---

١) تيمُّنًا باسم والدة الطفل يسوع ، وباسم الغنية هيلانة والدة قسطنطين الملك الذي تسمَّت المدينة البزنطية باسمه «القسطنطينية» ، ثم الاستانة لمَّا تملكها الاتراك.